الفصل العاشر

المرأة.. حماة

هذا الفصل مخصص للحماة أم الزوج، ولكنه يعنى أيضا بمن تحل محلها مثل أخت الزوج، ولا يهمل هذا الفصل أمر أم الزوجة فى حالات معينة، ويشير أيضا إلى حمى الزوجة أبى الزوج.

أم الزوجة

وأم الزوجة قليلا ما تكون مصدرا للمشاكل إلا فى حالات معينة منها.

– إذا كانت سيئة الخلق أصلا.

– إذا كانت شخصية الزوج من الضعف بحيث لا يستطيع أن يردعها عن التدخل فى أمور بيته، فتغرقه فى أمواج تحكماتها، وهناك من الأمهات من يبحثن عن مثل هذا الزوج، ولا يرضين عنه بديلا كزوج لبناتهن.

– إذا وجدت أن ابنتها لن تستطيع أن تقف ضد ما تراه افتئاتا على حقوقها.

والمعتاد أن أم الزوجة لا ترجو إلا سعادة ابنتها واستقرارها إلى جوار زوجها، تسعد لما يسعدان له، وتتكدر لما يتكدران له، ويمكن أن تقدم من التضحيات في ذلك السبيل ما يجعلنا نعتبرها مصدرا غير محتمل للمشاكل.

أبو الزوج

ويقف مع هذه الأم في نفس الجانب المريح حمو الزوجة، الذي يسعده عادة أن يجد نفسه قريبا من أنثى صغيرة وجميلة، يمكنه أن يتحدث إليها ويساهم في إسعادها، وقد رأيت زوجات يحزن حزنا عميقا لوفاة حميهن، فهو يمكن أن يكون عاملا ملطفا باستمرار لولا أنه في أحيان كثيرة يخشى من زوجته إن تمادى، ولكنه يمكن أن يقدم إلى زوجة ابنه مساعدات قيمة من خلف ظهر حماتها، بل إنه في وجود زوجته قد يتظاهر بموقف عدائي ضد زوجة ابنه إرضاء لزوجته هو، التي عادة ما تكون أفضل منه صحة، ويحتاج إليها في شيخوخته حاجة الطفل إلى أمه.

الأم ذات الشخصية الطاغية

وهناك الأمهات ذوات الشخصية الطاغية على جميع أفراد أسرهن سواء كانوا ذكورا أم إناثا، وأولاد وبنات هؤلاء الأمهات لا يستطيعون منهن فكاكا، بل إن أكثرهم لا يحاولون هذا الفكاك لأنهم فقدوا القدرة على اتخاذ أي قرار منفردين.

ولا يمكن القول بأن العداء بين الزوجة وحماتها حتمى، فهناك الكثيرات ممن يتعايشن فى سلام ومحبة وتعاون، كما أن عمل الزوجة جعلها فى حاجة إلى حماتها لرعاية الأطفال أثناء تغيبها فى عملها، ثم إن وجود زوج نشيط للحماة، يمكن يجذب فكرها بعيدا عن التدخل المستمر فى حياة أبنائها الزوجية.

متى تكون الحماة عنيفة

إلا أن الحماة كثيرا ما تكون عنيفة وخاصة إذا ما كانت قد وهبت حياتها بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه لتنشئة ابنها أو أبنائها، وكافحت فى سبيل ذلك وتحملت الكثير، إنها حينئذ تشعر بأنها قد صنعت كل جزء فيهم، فهى تملكهم، ولكن الزواج يملكهم لزوجاتهم ببساطة.. هكذا ؟! بينما هؤلاء الزوجات لم يكنَّ هناك عندما سهرت هى فى أيام المرض والامتحانات وعندما ضاق العيش وعندما كان الرجال يدورون حولها فنبذتهم، وتحملت ليالى الوحدة والألم لكى تشترى بها مستقبل هؤلاء الأبناء، والآن.. إن الابن يغلق عليه الباب مع هذه الإنسانه.. ؟!

حمام بعد منتصف الليل

إنه الامتلاك الكامل، لقد ذكر لى بعض الزوجات: إنهن كن يأخذن الحمام بعد منتصف الليل أو فى الصباح الباكر بماء كالثلج أحيانا، تجنبا للمتاعب التى لابد وأن تنشأ إذا ما شعرت

حماتها التى تقيم معها بشىء، صحيح أن الحماة نادرا ما تشير مباشرة إلى الموضوع، ولكنها لا تعدم موضوعا آخر لتنكد عيش زوجة ابنها، وهناك من الحموات من لا يخجلن من أن تحذر ابنها مباشرة بأن الإكثار من الجماع يضعف النظر والصحة، وكان مسليا فى العيادة أن ألحظ أن الحماة لا تلتقط من كلام الطبيب للمرأة الحامل التى تشكو من الإجهاض المحتمل إلا تنبيهه بالتوقف عن الجماع لفترة، ولا يفوتها أن تكررها للتأكيد، ولا أدرى كيف كانت تطمئن إلى تنفيذ هذه التعليمات فى المنزل.

وربما كانت هذه نماذج متطرفة، ولكن العروس التى تضطرها الظروف إلى العيش مع حماتها كثيرا ما تدرك بعد فترة ما يرتسم على وجه حماتها من غيرة إذا تبادلت مع زوجها المداعبات أمامها، وكما ذكرت إحدى حديثات الزواج أنه كان يسعدها جدا أن تضع بأصابعها فى فم زوجها على المائدة قطعة من صنف من الطعام أعدته له فى انتظار أجرها قُبْلة، ولكنها كانت تتراجع فى وجود حماتها، إلا أن مثل هذه الحماة قد يكون من نصيبها زوجة ابن من النوع الذى ما إن يكتشف أن تبادل المداعبات أمام حماتها يكمدها حتى يعربد شيطان الشقاوة فى صدرها، فتتفنن فى مزيد من أنواع المداعبة والدلال مع زوجها أمام حماتها كى تبتلع هذه مزيدا من الأقراص المهدئة والمخفضة للضغط.

نقص وزن العروس

وكان من السهل فى أغلب الأحيان أن أحدس أن الزوجة التى أفحصها تعيش مع حماتها من ملاحظة نقص أو عدم زيادة وزنها فى المرحلة الأولى للزواج، فالمعتاد أنه ما إن تتزوج الفتاة حتى يبدأ وزنها فى الزيادة، والاستثناء يكون فى العادة عندما تعاشر الزوجة حماتها، أو إذا كان فى المعيشة منغصات على نفس المستوى.

شهر عسل مستمر

ولذلك فإن كثيرا من الزوجات اللاتى هاجرن بصحبة أزواجهن للعمل بالخارج بعد أن قاسين الأمرين بسبب المعيشة تحت تأثير أهل الزوج والحماة كن يصرحن لى بأن الحياة فى المهجر كانت شهر عسل مستمر بكل المقاييس، فلا ملاذ للزوج بعد العمل إلا فى كنف زوجته مع متعة التزاور مع الآخرين المختارين فضلا عن الرخاء المادى، ولذلك فإن مثل هؤلاء الزوجات كن يقاومن العودة إلى الوطن، بل كن يحاولن إقناع أزواجهن بالتنازل عن الإجازة السنوية كلما أمكن.

قصة عنف حموى

ولا أستطيع مقاومة أن أحكى قصة عروس حضرت إلى بعد زواجها بشهرين، كانت لها بعض الشكاوى النسائية، ولكن

ما لفت نظري أنها ظلت تبكي بدون توقف قبل وأثناء وبعد الفحص، وأخيرا استطعت أن أعرف منها أن حماتها أجبرتها بعد زفافها بيومين على لبس السواد والذهاب معها لزيارة قبر زوجها المتوفى منذ سنتين، هذا بالرغم من أن بنات حماتها نفسها رفضن الذهاب مع أمهن، وبالرغم من أن عروسنا كانت قد خلعت الحداد على أمها خصيصا بمناسبة زواجها الذى أعقب وفاة أمها بستة شهور، ويمكننا على هذا النسق أن نتصور حياة تلك العروس فى الجو الذى كانت تشيعه حماتها التى تسكن فى نفس العمارة، فقد كانت تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة، وتجبرها على تنظيف شقة حماتها قبل شقتها، ولم تكد المسكينة تعرف متعة أن تصنع طعاما خاصا ببيتها، المهم أن الالتهابات التى كانت تشكو منها العروس كان مصدرها على الأكثر عدوى من زوجها، فطلبت إيقاف الجماع مؤقتا حتى أجرى له التحاليل اللازمة، فأوقفت أمه الجماع والتحاليل أيضا.

ويشعر كثير من الحموات أنهن لا يحتجن إلى كتمان مشاعرهن وآرائهن اعتمادا على السلطة المخولة لهن تاريخيا رغم أن هذه السلطة قد بدأت فى الانهيار، وفى اللحظة التى اتجهت فيها إحدى المريضات إلى حجرة الكشف أسرعت حماتها التى كانت فى مكتبى تقول عن زوجة ابنها:

إنها كبيرة فى السن يا دكتور.. كيف يمكنها أن تحمل؟.. مستحيل أن تحمل. ولم يكن سن الزوجة تتجاوز الثلاثين، كما تبين بعد ذلك أن العقم سببه عدم وجود حيوانات منوية بتاتا عند الزوج.

الحماة المثقفة

والمواقف والقصص التى تُحكى فى هذا الباب لا تقتصر على غير المثقفات، فهى تحدث فى جميع المستويات، ولكن الحماة التى لها من الثقافة نصيب يمكنها أن تمارس سلوكا يحفظ المظاهر بدرجات متفاوتة وتتصرف تصرفات متحضرة لسنوات وسنوات، ولا تعلق أو تنفس عما فى نفسها إلا مع صديقة صدوقة تطمئن إليها، وهنا تسمع التسمية الحقيقية التى ترى الحماة أن زوجة ابنها جديرة بها مثل البنت الصفراء - الحرباء - الأفعى - الجوعانة - أو بنت الشحاذين، فإذا حدث وجاء موقف تضعف فيه زوجة ابنها كأن تصاب بعقم، أو يسخط عليها ابنها لتصرفات خطيرة، فإنها لا تضيع الفرصة لتفرغ كأسا طال امتلاؤه.

الزوجة شديدة المراس

إلا أن أم الزوج قد تقع فى براثن زوجة شديدة المراس ولا تقبل الضيم، وتضع نفسها فى وضع استعداد دائم للحرب، بل إنها قد تسعى إلى المعارك ولا تنتظرها مما يتيح لها التوقيت والاستعداد

المناسبين، ولا تترك حماتها إلا وقد رسبت فى نفسها رعبا متزايدا بعد كل معركة وشعورا دائما بالهزيمة، ولا يصبح أمام الحماة إلا طلب الهدنة، ثم طلب السلامة، وهذا يمكن أن يحدث مع أكثر الحموات عنفا بدليل أن مثل هذه الحماة يمكن أن تستمر فى ممارسة دور الحماة التقليدى مع زوجات أبنائها الأخريات، ولا تحنى الرأس إلا أمام الزوجة القوية.

تأمين جبهة الابن والزوج

ولا يمكننا بالطبع أن نغفل تأثير العوامل الأخرى فى تحديد نوع العلاقة بين الحماة وزوجة ابنها. فإن كلاً من الحماة والزوجة يسعى لتأمين جبهة الابن والزوج قبل وبعد كل احتكاك، وأقواهما من تستثير عواطفه، ولذلك كنت أجد أن أضعف الزوجات هن اللاتى يحاولن الوقوف أمام حمواتهن بينما لم يكنّ قد تمكنّ بعد من عواطف أزواجهن، فمثل هذه الزوجة إذا اشتكت لزوجها من أمه كانت النتيجة معروفة مسبقا، أما الزوجة التى أغرقت زوجها فى عواطفها وأنوثتها فإنها يمكن أن تكون أكثر اطمئنانا مهما كان الارتباط بين الزوج وأمه، وقد رأيت أمثال هذه الزوجة وقد استطعن دفع أزواجهن إلى تصرفات تعد ثورية على المستوى العائلى، مثل الزواج بدون موافقة الأهل ومثل تحييد الأم بالنسبة للحياة الزوجية، أو الاستقلال فى المعيشة.

شخصية الابن

كما أنه مما يساعد الأم على التدخل فى حياة ابنها الزوجية، وتنكيد عيش زوجته أن تكون شخصية الابن ضعيفة إلى الدرجة التى يخلط فيها بين البر بالأهل وبين السماح لهم بإفساد حياته، فإن الزوج الضعيف المتخاذل لا يستطيع أن يحمى زوجته.

لكن فى أحيان كثيرة يكون الابن مضطرا إلى تحمل الكثير من تصرفات والدته وصور التوتر بينها وبين زوجته عندما لا يكون هناك بد من المعيشة المشتركة لأسباب اقتصادية واجتماعية، وهنا تكون الحياة هى محصلة القوى بين الاثنتين، وأذكر أن زوجة ظلت لا تنجب طوال اثنى عشر عاما فكانت حماتها تعيرها ليل نهار أمام ابنها، وتكرر له أن زوجته لا تستحق الطعام الذى تأكله، فلما أنجبت الزوجة طفلين وتغيرت موازين القوى، أمكن للزوجة فى مراحل انتقامها أن تحرم حماتها من الجلوس إلى مائدة الطعام، وأجبرتها على أن تأكل وحدها باستمرار.

التبادل الوظيفى بين الزوج وأمه

والملاحظ أنه أحيانا يكون هناك نوع من التبادل الوظيفى بين الزوج وأمه فإذا كانت أمه من نوع الحموات القاسيات، كان هو طيبا وملاطفا لزوجته وكارها للمشاكل تخفيفا عنها مما تراه من أمه، أما إذا كانت أمه طيبة فكثيرا ما تأتى المتاعب من ناحيته، وعلى

كل حال. فعند الحوار مع من تقاسى الأمرين من حماتها، كانت تفضل دائما أن تكون المتاعب من ناحية زوجها، فهناك على الأقل وسيلة لإرضائه فى نهاية اليوم، أما الحماة فكيف السبيل إليها.

منصب الحماة يَجُب منصب الخالة

كذلك عندما تتزوج البنت ابن خالتها، فإن هذه الخالة تكتشف أن منصب الحماة يَجُبُّ منصب الخالة فتتقلد الأول، ويأتى على الزوجة أوقات لا تصدق فيها أن هذه الحماة هى نفسها خالتها التى كانت تعدها أما ثانية لها.

والواقع أن كثيرا من الزوجات يفقدن أرضا منذ اللحظة الأولى للزواج، لأنهن يبدأن وكلهن أحلام عن السعادة، والآفاق غير النهائية للحب، فإذا وجدن صدمات من الحماة أو من يماثلها كثيرا ما يتحملنها واحدة تلو الأخرى على أمل أن تكون كل منها الأخيرة، وبعد فترة يكتشفن أنهن أصبحن فى موقع ثابت يتحملن الضغط الذى يمارسه الطرف الآخر من موقع أعلى، ويكون بدء القتال بعد ذلك أكثر صعوبة.

يجب أن ينتهى تدخل الأهل

وقد يبدو مما سبق أن هذا الكلام يحمل بعض القسوة على الحموات، ولكن لابد وأن ينتهى تدخل الأهل وعلى رأسهم أم الزوج

فى أمور حياته الزوجية، ويجب أن تعلم كل أم أن للزوجين الحديثين كل الحق فى الاستقلال فى التصرفات حتى بالرغم من المعيشة المشتركة، وبالتالى فإن لهما الحق فيما يبدو للآخرين خطأ وبالتالى فإن لهما الحق فى الرجوع عنه، فإن مجرد دس الأنف بينهما حتى إذا تنازعا سيجعل هناك طرفا ثالثا فى النزاع، ولما كانت العلاقة الزوجية تسمح لأحد الطرفين أو لكليهما بالتنازل عن الكبرياء، فإن الطرف الثالث يشعر بأنه الوحيد الذى لم يتم ترضيته، فيسعى إلى إشعال النار ثانية، ليجدد دوره، ويؤكد أهميته باستمرار.

وهذا الكلام موجه أيضا إلى الزوجين فعليهما ألا يسعيا إلى إدخال طرف أو أطراف آخرين فى مشاكلهما، وألا يتزوجا معتقدين فى معيشتهما على المعونة الخارجية بشكل مؤثر، فإذا تكتما مشاكلهما بعيدا عن الآخرين، فسيكتشفان أن المشاكل تذوى ولا تنمو، ذلك أن هذه المشاكل لا يرويها إلا الأطراف الخارجية.

حماة متعبة ولكن غير مؤذية

ومن الحموات المتعبات، ولكنهن لسن بالضرورة مؤذيات، ذلك النوع الذى تشعر فيه الحماة بالغيرة الأنثوية من زوجة ابنها من حيث الملبس والحلى بل والنزهات متناسية أمورا كثيرة، فهى لابد أن تشترى شيئا جديدا مناظرًا لكل ما تشتريه زوجة ابنها، وربما من

نفس المكان، فإذا تنزهت هذه فلابد من نفس النزهة، والمشكلة تتفاقم عندما تطلب نفس الأشياء من ابنها الذى يجد أنه مطالب بمصروف مضاعف، وكثيرا ما يمتنع هو عن شراء شيء جديد أو يخفيه طلبا للسلامة.

تأثير الحماة فى نواح أخرى

ويستمر تأثير أم الزوج والزوجة بالرغم من كل شيء فى نواح كثيرة فرأيهن مؤثر بالنسبة لتنظيم النسل سواء عند بدئه أم الاستمرار فيه أم الانقطاع عنه، صحيح أن كثيرا من هؤلاء الحموات يشجعن بناتهن على تنظيم النسل إلا أنه بالرغم من نقص معلوماتهن فإن نسبة كبيرة منهن لا يتورعن عن إصدار فتاوى، وتقديمها فى صور نصائح الخبيرة المدركة لبواطن الأمور، لا تملك أمامها الزوجة الصغيرة إلا الرضوخ فى أكثر الأحوال.

قنطرة التاريخ

والاهتمام بهذه الفئة المؤثرة من الحموات والأحماء هو اهتمام بالقنطرة القوية التى تنقل المعتقدات المتأصلة فى أى مجتمع عبر الأجيال، وهم أيضا يحفظون الأسماء التقليدية حيث يسمى بأسمائهم الأطفال رهبا ورغبا، كما أنهم ينقلون الأغانى الفلكلورية للأطفال الكبار، وهم يرتبطون بأحفادهم ارتباطا عاطفيا قويا قد يتجاوز

ارتباطهم بأبنائهم أنفسهم، فإذا كان الأبناء يحملون احتمال بقاء الذكرى وهو ميل غريزى فى الكائن الحى فإن الأحفاد هم بالتأكيد استمرار لذلك البقاء، ولذلك فإن الأجداد يرون فى الأحفاد ما قد لا يراه أباء هؤلاء الأحفاد، وقد يؤدى حبهم الشديد لهؤلاء الأحفاد إلى إفسادهم أحيانًا.

ختان البنات

والجدات يتحملن أيضا مسئولية استمرار عملية ختان البنات، ذلك أنهن إذا وافقن على عدم أهميتها، فإن ذلك يعنى أنهن لم يكن مصيبات فى أمر هام جدا بالنسبة لأنوثتهن، ولذلك فإن كثيرا من الجدات لا يهدأ لهن بال حتى تتم تلك العملية التى لا تحمل معنى، فإن حملت فإنها تحمل معنى القسوة والوحشية فضلا عن عدم الإدراك السليم لأمور أساسية فى السلوك الجنسى.

وتستقبل المستشفيات والعيادات فى أنحاء مصر يوميا عشرات من ضحايا الختان على مدارج الخطر المختلفة بسبب النزيف ومنهن من يكن على شفا الموت، وكثيرا ما تنتهى بتشوه الفرج إلى جانب الصدمة العصبية والنفسية حيث إن أغلب من يمارسون الختان، لا يعلمون شيئا عن التخدير أو الجراحة.

تسفيه التطور الطبى

وفى هذا المجال يسعد الجدات أن يفخرن أنهن أنجبن فى الماضى ما بين خمسة وعشرة أطفال دون زيارة طبيب واحد، وينسين أن من تحكى هذا هى فقط التى قدر لها ألا تموت فإن الوفاة بسبب الولادة فى الماضى كانت تتجاوز الثلاثمائة والخمسمائة نفس فى كل مائة ألف ولادة، أما الآن فإنه بالرعاية والتوليد السليم تقل الوفيات عن عشرة فى كل مائة ألف فى العالم المتقدم كما أنه فى بحث أجرى بمنطقة شعبية وجدنا أنه بالنسبة لمن تنجب طفلين تكون نسبة وفيات الأطفال ستة فى كل ألف، وهى نسبة ضئيلة، وتزيد الوفيات كلما زاد عدد الأطفال حتى تصبح أربعمائة وعشرة فى الألف عند من أنجبن اثنى عشر طفلا فأكثر.

والخلاصة أنه فى مجتمع كل أسرة تقبع شخصية أو أكثر من كبار السن تؤثر فى مسار وسعادة تلك الأسرة أيما تأثير، وذلك بالرغم من أنها لا تلقى الاهتمام الكافى ممن يرجون تغييرا فى سلوك شعب يتلائم مع متطلبات العصر.